جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

عبد القاهر الجرجاني

في الخطاب النقدي المعاصر

أطروحة دكتوراه قدّمها

سعد جمعة صالح الدليمي

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة ديالى

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور: أحمد مطلوب

جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ

آذار ٢٠١٤م

مدخل:

جريا على ما شهدته الساحة الأدبية من صراعات نقدية امتدت قرونا، أحدثت إرباكا في المفاهيم وتشابكا في رؤاها، أوجب ذلك ولادة تيارات متناحرة فيما بينها انبثقت منها آراء مختلفة تلامس الصراع أحيانا وتدخل في حيزه أخرى؛ ولعل الاختلاف بين هذه الاتجاهات كان مبكرا تزامن مع توافد الغث والسمين على المفاهيم اللغوية الأمر الذي أحدث صدعا في طرائق معالجتها، زامن ذلك بحسب رؤية الجاحظ الهجمة الشعوبية على العرب ولغتهم، ورافقت تلك التصورات أسئلة كثيرة عن مفاهيم قرآنية يجهلها الوافد المسلم، مما جعل العلماء يبحثون في مجازات بعض ألفاظ القرآن أو دلالات آياته بطريقة توهم بوجود الغريب والمنفّر.

وبسبب من هذه وتلك بدأت الأصوات تتعالى مطالبة بالكشف عن فصاحة البيان العربي لاستيعاب الجهة التي منها أُعجزت العرب عن الإتيان بسورة أو بآية من مثل تعبيره القرآني، وقد أنبرى لمعالجة هذه الانقسامات عدد من العلماء (أَولهم) أبو عبيد (٢٠٨هـ) في كتابه (مجاز القرآن) ومن ثم الجاحظ (٢٥٥هـ) إذ جمع في مؤلفاته الكثير من الآراء بعضها من خاصته وأكثرها مستعارة ناقش فيها الخصوم وحاورهم في قضايا كثيرة لعلها قد فتحت صراعا طويلا انبرت منه مقايسات أجيال القرنين الثالث والرابع الهجريين ولاسيما في قضية (اللفظ والمعنى) تلك المسألة التي امتدت حتى حاضرنا المعاصر ممثلة في إشكالية الشكل والمضمون.

ولعل ((أول ما يلفت الانتباه في الدراسات والأبحاث البيانية، سواء في اللغة أو النحو أو الفقه أو الكلام أو البلاغة أو النقد الأدبي هو ميلها العام والواضح إلى النظر إلى اللفظ والمعنى ككيانين منفصلين، أو [في الأقل][1] كطرفين يتمتع كل

---

(١) وردت في الأصل (على الأقل)

منهما بنسبة واسعة من الاستقلال عن الآخر))[١]، إذ أخذ عدد من الدارسين والباحثين تلك الآراء والمقايسات وحملوها على ظاهرها متجاوزين معالجات عبد القاهر أحيانا، ومحمليه ما ليس له في أحيان أخر، وما يميز هذه القضية (اللفظ والمعنى) أنها من المسائل التي نضجت ولم تحترق فهي ((المشكلة الايبستيمولوجية الرئيسة في النظام المعرفي البياني، المشكلة التي أسست هذا النظام/ أو [في الأقل][٢] بلورته وبقيت تغذّيه منذ عصر التدوين إلى اليوم، مشكلة الزوج: اللفظ/المعنى))[٣].

فعلى ما قيل وكثر الحديث فيها ما زالت تحتاج إلى معالجات جدية تجمع خضم الدراسات في بودقة واحدة وتستخرج منها اللباب، إذ مقصدية المصطلح بقيت لبسا مشكلا على الكثير بسبب الكلام الطويل الذي أحاط بها، وبسبب مجاورة بعض المفاهيم لها.

ولما كان لها كل هذه الأهمية، لابُدّ من طرح السؤال الآتي: أين يمكن تلمس خطورة قضية (اللفظ والمعنى) وأهميتها؟ حتى تأخذ هذا الصدى الكبير من الدراسة والحوار منذ القديم حتى يومنا هذا وفي مختلف الآداب، إذ ((هي قضية شغلت المشتغلين بالدراسات الأدبية والنقدية على مر العصور، لا في الآداب الأوربية وحدها، ولكن في أدبنا العربي كذلك، وخطورة هذه القضية إنما تنشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الأدبي وتبين تأثيره، فإن أي خلط في فهم طبيعة العلاقة

(١) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، بيروت، ٢٠٠٠م:٤١.

(٢) وردت في الأصل (على الأقل).

(٣) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية:٤١.

بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورة الى الخلط في الحكم على الآثار الفنية وإلى اختلاف النقاد والأدباء في الحقائق))[١].

إذن ترتبط الأهمية بـ ١- تقدير قيمة العمل الأدبي ٢- تبين تأثير العمل الأدبي ٣- إنَّ أي قراءة خاطئة لفهم طبيعة (قيمة العمل الأدبي وتأثيره) ستؤدي إلى خلل في الحكم على النتاج الأدبي ٤- ومن ثم يؤدي ذلك إلى اختلاف النقاد والأدباء في الكشف عن التأويلات الناجعة، هذه الأمور وغيرها ستتضح في ثنايا قراءات المعاصرين لهذه القضية.

وينقسم هذا الفصل بدوره لدراسة مسائل عديدة تنتظم في ثلاثة مباحث على وفق الرؤى التي اقتنصتها التناولات المعاصرة لمادته في التصور الآتي: المبحث الأول: (أصالة قضية اللفظ والمعنى)، وجاء المبحث الثاني بعنوان: (خطأ القراءة وإشكالية التأويل)، وجاء المبحث الثالث بعنوان: (آراء عبد القاهر خرق التصورات وتأسيس المنطلقات).

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث: محمد زكي العشماوي، ٢٠٠٩م ، مؤسسة جائز عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري:١٨٧.

المبحث الأول

أصالة قضية اللفظ والمعنى

إنَّ التاريخ النقدي لم يغفل بعض الاختلافات الناجمة عن تلاقح الحضارات، فمما يتفق عليه جمعٌ من الباحثين والدارسين أنَّ قضية (اللفظ والمعنى) من القضايا الإشكالية في تراثنا الأدبي وحاضرنا النقدي، ولابد للبحث وهو يتقصى عمق هذه القضية، ويرى صدارتها في جل الكتابات النقدية والفكرية التثبت من أصالتها والبحث في جذورها؛ ذلك من خلال معرفة الكشوفات النقدية التي قال بها المعاصرون من العلماء والدارسين والباحثين، وقد أخذت هذه القضية مناحي مختلفة تنسجم وطبيعة القراءة ودرجة الفهم التي صاحبتها؛ فقد لامس بعضها السطح النصي في حين غاص القسم الآخر في العمق متمسكا بمبدأ استنطاق النصوص والوقوف على كينونتها أو القراءة القريبة من مرادها، ولم تهمل هذه الدراسات كل إشارة ولم تترك أي سبيل للتنقير في التراث العربي إذ الجذور الأولى لهذه القضية تكاد تكون أصلا من أصول النقد القديم وعمودا من أعمد شعره؛ ناهيك عن البحث في أصالة هذه المسألة المهمة أعني (قضية اللفظ والمعنى) واستبيان مدى انتسابها العربي من امتدادها وتبعيتها للطروحات الأرسطية كما قال بعضهم، له من الأهمية الكبيرة في انتظام الأصول الأدبية والنقدية للبيان العربي، وقد تلمس القدماء والمعاصرون صعوبة ((ضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى في الخطاب البياني[...] هي المشكلة [الرئيسة][١] في الحقل المعرفي بمختلف مناطقه وقطاعاته))[٢].

---

(١) وردت في الأصل (الرئيسية).

(٢) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية:٤١.

والبحث يحاول جمع شتات تلك التصورات وقراءتها والوقوف عند مرادها، بهدف إظهارها بصورتها المثلى أولا، ومن ثم تبيان مدى ارتباط جهد عبد القاهر في التعامل معها على نحو ما رصدته الدراسات المعاصرة؛ ومعالجات هذه القضية في هذا المقام تتمحور في اتجاهين:-

الأول/ الوافد اليوناني الانحراف والمعالجة:

قدَّم بعض الدارسين المعاصرين آراء أرسطو في كتابيه (فن الشعر) و(الخطابة) على أنها الملهم لنشأة البيان العربي عموما والباعث له، ومن قضاياه المهمة (اللفظ والمعنى)، تسليما بهذا القول تثار العديد من التساؤلات لعل من بينها ما يبحث الكيفية التي أثرت فيها آراء أرسطو في البيان العربي سلبا أو إيجابا؟ وهل قدمت حلولا مقنعة ومقاسات ملائمة تتواشج وطبيعة اللغة روحها الغنية بالإبداع؟ وهل ما تُرجم إلى العربية في تلك الحقبة كان مدركا بدرجة عالية من الإفهام أو أنه خلق تصورات ولدتها الترجمات.

إنَّ تتبع قضية التأصيل أو الإتباع مهمة شائكة استلزمت من الدارسين والباحثين قراءة النصوص وتحليلها ومقاربتها وتأويلها، بغية تبني فكرة ما أو إحداث قربى بين فكرين قد يكونان قريبين على مستوى التنظير، لكنهما حتما مختلفا البيئة وبعيدان عن مستوى التطبيق، ولعل من أبرز وجوه الاختلاف بين اللغتين العربية واليونانية الجانب الفلسفي إذ إنَّ فلسفة اللغة العربية ترتبط بالديني المقدس، في حين نجد أنَّ اليونانية ترتبط عندهم بالمادي المنتهك المتغيِّر؛ ولعل خصوصية ذلك تتضح من جانب أنَّ للعرب ((نظرية ساهمت في حل المُشكل الحضاري الجديد الذي واجه العرب، باعتبارهم أُمَّةً خلعت عنها ثياب البداوة، وارتدت ثياب الفكر الجديد، والحياة

المادية الجديدة، ومن هنا جاءت العلوم لكي تلبّي حاجة معرفيّة أساسية، تضاهي ذلك التطور المادي في الحياة))[١].

وصياغة النظرية اللغوية بمختلف جوانبها جاءت نتيجة حاجة داخلية استوجبتها مظاهر الحياة الجديدة للمسلمين لتفسير البنى الفكرية في الخطاب الديني، ولعل التشابه والقربى بين حضارتين في بعض الأصول، أمرٌ لا يقع في صميم الأصالة، حتى وإن كان هنالك إتباع فهو لا يحرم من التفرد والسبق.

وفي خضم هذه التجاذبات برزت على الساحة الأدبية المعاصرة دراسات وبحوث تديم صراع (اللفظ والمعنى) سواء كان ذلك عن علمٍ منها أم عن غفلةٍ بذلك نتيجة سوء القراءة وغلبة روح التأويلات الفردية للنصوص؛ متجاهلة المعالجات التي شهدتها الساحة النقدية القديمة على يد عبد القاهر حين وضع حدودا جديدة في التعامل مع اللفظ والمعنى.

سجلت دراسات النقاد والباحثين المعاصرين على التراث العربي ملاحظات كثيرة تباينت في رؤاها وشهدت بدورها تحولات عديدة ناتجة من عمق هذا التراث أولا ومن ثم تطور المعرفة، وتعددت المقايسات نتيجة الاحتكاك بالوافد الغربي صاحب الأثر بحدّيه (الإيجابي والسلبي)، وقد كانت من أهم تلك القراءات القول بتبعية البيان العربي للمنطلقات الأرسطية.

يؤخذ على هذا الرأي أنه أراد مصادرة أحقية الانتساب العربي فنقل القضية إلى تناغمات العالم الواسع مما قد يسهم في تأجيج الشعور بالضياع وسلب الأمة العربية

(١) تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر: د. ناظم عودة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٧م: ٧٦.

من هويتها الحضارية المتمثلة بالبيان وفي مثل هذا التوجهات رغبة أكيدة في دعم فكرة المركزية الأوروبية.

ولم تكن هذه المعتقدات مصادفة فقد تأسست على افتراضات سابقة كانت الطروحات الاستشراقية هي المولد لها والباعث لنشأتها، فمن ذلك ما قال به بروكلمان:((والقناة الأخرى لنقل العلم اليوناني، كانت من مدينة حرّان بأرض الرافدين، وكان سكانها على الرغم من البيئة المسيحيّة الخالصة التي حولهم قد احتفظوا بوثنيتهم الساميّة القديمة التي تأثرت بدين هرمس تأثر قويّا، وقد ازدهرت فيها بخاصّة الدراسات الرياضيّة والفلكيّة التي أنبتتها الحضارة الأكديّة من قبل ثم رعتها الهلينسيّة))[١].

ولو سألنا بروكلمان لماذا خص أرض حران بالعراق بنقل هذه المسألة دون غيره من البلدان العربية الأخرى التي كانت في الأصل تحت سيطرة الرومان قرونا من الزمن، نظن أنه أراد التشكيك بالمنبع الأهم للبلاغة العربية في تاريخ البيان العربي خاصة، وفي شتى المجالات النحوية والنقدية والبلاغية والإبداعية بعامة.

وتتناسق هلينية بروكلمان في توظيف الدكتور طه حسين لتكون هي المسوق المقبول في ادعاء مبدأ التبعية وتوثيقها، وليس ذلك بأغرب من أن يقال:((لقد أثرت الهيلينية في الأدب العربي البحت من طريق غير مباشر بتأثيرها أولا في متكلمي المعتزلة الذين كانوا جهابذة الفصاحة العربية غير مدافعين، والذين كانوا بتضلعهم من الفلسفة اليونانية، مؤسسي البيان العربي[...] لا شك أن تفكيرهم الفلسفي أعدهم لأن يتصوروا صناعة الكلام كما كان يتصوّرها اليونان من بعض الوجوه))[٢].

---

(١) تاريخ الأدب العربي: بروكلمان ترجمة: نخبة من المترجمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م:٥٠٣/٢.

(٢) نقد النثر: المنسوب خطأً لقدامة بن جعفر، المكتبة العلمية، بيروت–لبنان، ١٩٨٠م،(مقدمة المحقق):٨–٩.

ولم يكن العلماء والباحثون المعاصرون بعيدين عن طبيعة الأهداف المخبّأة خلف هذه التوجهات فقد حذروا من مغبة الانزلاق خلف هذه الرؤية، وكانوا على وعي تام بخطورة هذا الادعاء وبالقيود التي يفرضها المستشرقون على التراث العربي إذ يؤكد الدكتور أحمد مطلوب أن الهجمات الاستشراقية كانت من بواعث التشكيك في أصالة التراث العربي والمأسوف له أنَّ طروحاتهم مثلت ((شبهات تجد صدى في بعض البيئات، ومن ذلك أنَّ البلاغة العربية نشأت في ظل الأثر الأجنبي وهي دعوة أخذت تتردد منذ أكثر من نصف قرن في الدراسات ويذيعها بعض المستشرقين وأنصارهم من العرب، فقد آلمهم أن تكون اللغة العربية متميزة على غيرها من اللغات وأن تظل خالدة على أصالتها التي نبعت من الأمة وروحها واستقت روعتها ورونقها وبهاءها من كتاب الله العزيز))[١].

ومن مسوغات رفض هذه الدعوات التي وجدت صداها في الساحة النقدية العربية بعد رؤية بروكلمان ومن تبعه خطورة الدعوى الاستشراقية وعقيدتها المبطنة تجاه العلوم العربية جميعا فإنَّ ((المستشرق صاحب المنهج التاريخي يفكر (شموليا) في الفلسفة الإسلامية لا بوصفها جزءا من كيان ثقافي عام هو الثقافة العربية الإسلامية، بل بوصفها امتدادا منحرفا أو مشوها للفلسفة اليونانية؛ وبالمثل يفكر في النحو العربي ومدارسه يُوجِّهه هاجس ربطها بمدارس النحو اليوناني[...] وبيان تأثرها بالمنطق الأرسطي))[٢].

إذ مثل هذه الدعوات تشوه الرؤية المعاصرة للتراث عموما وتخلق بيئة غير سليمة قادرة على رفض كل شيء والشك فيه، ولعل الإيمان بقبول هذه المقترحات

(١) بحوث بلاغية: الدكتور أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي بغداد:١٩٩٧م:١٧٥- ١٧٦.

(٢) التراث والحداثة دراسات.. ومناقشات: الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية،ط٣، بيروت، ٢٠٠٦م: ٢٨.

الاستشراقية سيولد حالة من التوتر في الفكر العربي يمثل خطرا كبيرا إذ ((الصورة "العصرية" الاستشراقوية الرائجة في الساحة الفكرية العربية الراهنة عن التراث العربي الإسلامي: سواء منها ما كتب بأقلام المستشرقين أو ما صُنّف بأقلام من سار على نهجهم من الباحثين والكُتاب العرب، صورة تابعة، إنها تعكس مظهرا من مظاهر التبعية الثقافية، [في الأقل][١] على صعيد المنهج والرؤية))[٢].

وقد جوبهت آراء الدكتور طه حسين بالرفض من العديد من العلماء والباحثين ذلك لما تحويه من إجحاف بحق تراثنا العربي وعدم مجانبتها الصواب فضلا عن عدم استنادها إلى أدلة وثيقة الصلة بالاتهامات ناهيك عن مخالفتها للجمع، زيادة على الشكوك التي تحوم حول محاباة بحثه المعنون (البيان العربي) للمركزية الغربية، وقد أوجب الوعي العربي بخطورة تكهنات التبعية إلى تعقب القضية من جذورها فقد ((ظل الاعتقاد السائد في أوساط الدارسين حتى مطلع الثلاثينيات من هذا القرن العشرين أنَّ الظواهر البلاغية بمصطلحاتها ومفاهيمها عربية النشأة والجذور[...] إلا أنَّ هذا الاعتقاد تعرض للاهتزاز منذ قدم الدكتور طه حسين بحثا إلى المؤتمر الثاني عشر لجماعة المستشرقين الذي عقد في مدينة "ليدن" في سبتمبر سنة ١٩٣١م، موضوعه "البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر"، وقد قدمه أصلا باللغة الفرنسية، ثم تولى ترجمته بعد ذلك إلى العربية الدكتور عبد الحميد العبادي، ووضعه مقدمة للكتاب الذي شاع خطأ باسم "نقد النثر" وعُزي وهما إلى قدامة بن جعفر))[٣].

فكما يُرى أنَّ المسألة قد حُركت في العصر الحديث، ومع الدكتور طه حسين وأستاذه بروكلمان، وسواء أكانت الدعوة غربية أم عربية فأنها ستكون عامل تأثير في

---

(١) وردت في الأصل (على الأقل).

(٢) التراث والحداثة دراسات..ومناقشات: ٢٩.

(٣) البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم: د. شفيع السيد، دار الفكر العربي،القاهرة، ط١، ١٩٨٧م:٩٢.

خلخلة الكثير من الثوابت، وقد كانت هذه الرؤية التابعة تنم على قراءة إجمالية لا تخضع لأي قالب من قوالب التفصيل أو الغوص في عمق الدليل ((فقد ربط الدكتور طه حسين في هذا البحث، البيان العربي، كما يبدو في كتابات الجاحظ، ومن أتى بعده من علماء البيان العربي حتى عبد القاهر في القرن الخامس الهجري، بالبيان اليوناني متمثلا، بخاصة، في كتاب الخطابة لأرسطو، ورأى أنه حتى منتصف القرن الثالث الهجري لم يكن قد وجد بيان عربي تام التكوين، وإنما كانت هناك جهود صادقة مفيدة ترمي إلى إنشاء هذا البيان، ووضع قواعده))[١] أليس هذه الجهود الصادقة بؤر معرفية تنم على وعي بالمعارف اللغوية، إن لم تكن هي المعدن الذي تغذت منه نظريات البيان العربي بعد منتصف القرن الثالث الهجري أي بعد وفاة الجاحظ .

وفي ظلال هذا التوتر عن تبعية البيان العربي لفصالات الطرح الأرسطي تبنى أحد الباحثين فكرة القول إنَّ الجاحظ ((لم يكد يخرج النقد العربي عن هذه الحدود [التي مثلتها آراء أرسطو][٢] في علاجه مسألة اللفظ والمعنى، فقد عالجها على أساس المقابلة بين كل منهما، ولكنه أولى المسألة عناية كبيرة))[٣].

ومثل هذا القول الذي يتناسى عمق البيان العربي ورؤاه الإبداعية الخالدة من غير الممكن أن يساق أو يقبل، فقد جوبه بالرفض فليس هنالك من مسوغ لتعاطيه، نظرا لما يعزوه من ظلم للفكر العربي عموما، ولاسيما أنَّ ((هذا الحكم موغل في التطرف حد التعسف الذي يظلم به أصالة النتاج الأدبي العربي واستقلالية الثقافة البيانية العربية، صحيح أنَّ العقلية النقدية العربية قد تأثرت بترجمات الفلسفة

(١) البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم: ٩٣.

(٢) الإضافة بين القوسين من الباحث.

(٣) النقد الأدبي الحديث: د: محمد غنيمي هلال، دار العودة–بيروت (لا،ط) ١٩٧٣م :٢٥٣.

اليونانية، إلا أنها هضمتها وتمثلتها خير تمثيل إلى جانب تراثها الأدبي والروحي القرآني))[١].

وقد حاول بعض الدارسين والباحثين أن يرى في أفكار أرسطو أثرا إيجابيا، إذ ذهب الدكتور محمد العمري ببناء علاقة يرى أنها ايجابية قائمة على تبادل الأثر مع حضارات أخرى لا غرو من الزعم أنّ المختارات الشعرية تعد ((تمثيلا لثقافة إنسانية تقوم على المثاقفة وتبادل التأثير، ثقافة تفاعل، فيها الإسلامي واليوناني وغير الإسلامي وغير اليوناني، من تراث الفرس والهنود وغيرهم تفاعلا عميقا))[٢].

هذا يندرج في منطلق تبرير الأخذ بتطويع المفاهيم لصالح المعرفة العربية، وفي السياق نفسه لا يستبعد الدكتور ناظم عودة على العرب أخذهم من الأمم السابقة ويعتبرها من عوامل تطور دائرة الثقافة العربية وتوسيعها وكلامه هذا لا يخلو من الأثر الاستشراقي أيضا؛ فـ((على الرغم من أنَّ العرب هم الذين بادروا إلى الأخذ من تلك الثقافات والعلوم الخارجيّة، فإنهم طوّعوا مفاهيم العلم، وزودوا تلك الثقافات بأفكار جديدة [طوال][٣] استمرار تلك العلاقة الثقافية التفاعليّة))[٤] ويدخل هذا في جانب الأثر الايجابي.

ومن هنا يمكن القول إنَّ هذه التكهنات لم تأت من فراغ بل تكاد تكتسب شرعيتها في الساحات النقدية نتيجة المقارنات التي وجهت اغلبها على إيجاد صلات قربى بين الطرحين الأرسطي والعربي فمن ذلك:

---

(١) فلسفة المعنى في النقد العربي المعاصر المشرق العربي ١٩٤٥-١٩٩٠م: لواء الفواز، دار الشؤون الثقافية -بغداد، ط١، بغداد- ٢٠١٣م:٣٠-٣١.

(٢) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق-المغرب، ط٢، ٢٠١٠م :٨٢.

(٣) وردت في الأصل (طيلة).

(٤) تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر: ٧٧.

١-ملاحظة الفروق المنهجية في تأليف الكتب العربية القديمة، واعتماده أساسا من أسس المشابهة في الرؤية المعرفية بين المنطلقات التي تأثرت بالوافد اليوناني من التي لم تتأثر، واحتساب ذلك مبررا ((يكفي في التدليل على صحة هذه الدعوى أن تقارن وأنت تقرأ الجاحظ بين مذهبهم في نقد الشعر والنثر، وبين مذهب آخر عربي خالص، هو مذهب اللغويين أمثال ابن سلام فسيتضح لك الفرق بين الفكر العربي الخالص الذي كاد يحتفظ ببداوته كاملة غير منقوصة، وبين الفكر العربي الذي كان ذا صبغة يونانية قوية))[١]، وهذا التصور لا يكفي لبناء فرضية الاتباعية إذا ما أخذنا بالحسبان عقلية الجاحظ ذات المنطلقات الفكرية بعين الاعتبار، مقارنة بابن سلام والبيئة التي نشأ عليها وفرضها تقليدية التفكير الدال عليه منهجه في التأليف.

٢-ذهب الدكتور محمد غنيمي هلال إلى إيجاد صلات قربي على المستوى التنظيري النصي بين النقدين الأرسطي والجرجاني، من جانب الكشف عن سمات القربى بين نص عبد القاهر بقوله: ((تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك، وإزاء ناظرك؟))[٢]، ليجعل من هذا القول يلامس((مسألة جوهرية أشار إليها أرسطو، هي إن عملية النطق مستلزمة- ضرورة للتفكير))[٣].

وفي السياق نفسه يذكر الدكتور محمد العمري وجود الصلات بين فكري الجاحظ وأرسطو، إذ الجاحظ ((كان على بينة من تصور الحكيم أرسطو في بناء المعرفة وتداولها، ولكن يبدو أنه وجد في كتاب فن الخطابة وحده ما يسعف في تنظيم

(١) نقد النثر: المنسوب خطأً لقدامة بن جعفر، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، ١٩٨٠م(مقدمة المحقق): ٩.
(٢) دلائل الإعجاز: ٦٢
(٣) النقد الأدبي الحديث: هامش الصفحة: ٢٧٣.

المعرفة الشفوية العربية المطلوبة عند المعتزلة لبناء فن خطابي مفيد في معركتهم الفكرية، فانحاز إلى المقام على حساب البناء اللغوي))[١].

٣- الادعاء أن القراءة العربية لكتاب (فن الشعر) هي التي أسعفت عبد القاهر في بناء بلاغة المفارقة في كتابه(أسرار البلاغة)، وإنَّ نظرية المحاكاة هي التي أسهمت في تأسيس نظرية الكلام النفسي والكلام المقصود في كتاب (دلائل الإعجاز)[٢].

٤- ظهور الفلسفة علما معرفيا وافدا عن طريق الترجمات مصاحبا لحلقات التطور النقدي التي شهدها التراث العربي وتولد تيارات المتكلمين، إذ ((ما أن وصل الفكر النقدي العربي منتصف القرن الثالث الهجري حتى عصفت به رياح المجادلات الكلامية بين الفرق والعقائد. خالطتها في الوقت نفسه مؤثرات فلسفية جلبتها حركة الترجمة والنقل من الآداب الأجنبية، اليونانية))[٣].

٥-ومن ذلك القول إن الإتباع لم يقتصر على اليونان بل امتد هذا الأثر إلى آداب أخر كالفارسية، ومن الممكن تلمس آثارها النقدية في التراث العربي متجاورة مع الآراء النقدية العربية[٤].

٦-تقريب وجهات النظر من خلال تبني فكرة القول إنَّ الجاحظ نظر ((إلى المعنى نظرة أرسطية على أنه الجوهر الثابت المعروف وأنَّ الألفاظ هي الأعراض التي تطرأ عليه من خلال مهارات الشعراء في الصياغة))[٥].

---

(١) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: ٢٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه:٢٧.

(٣) فلسفة المعنى في النقد العربي المعاصر المشرقي المعاصر:٢٨.

(٤) ينظر: نقد النثر: المنسوب خطأً لقدامة بن جعفر، (مقدمة المحقق): ٧. وينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها:٢٦.

(٥) فلسفة المعنى في النقد العربي المعاصر:١٤. وينظر: الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي:د. هيام عبد عطية، دار تموز، سوريا،ط١، ٢٠١٢م :٦٩-٧١.

٧- ومن فرضيات تبعية البيان العربي، ارتباط بعض أساليب النقاد العرب في بداية القرن الرابع الهجري بالأسلوب الأرسطي، مثال ذلك ((ما يُلفت النظر في أسلوب ابن طباطبا وفي أفكاره وحتى قناعاته العلمية في تقسيم كتابه، أنَّ المنحى الفلسفي اليوناني لا يكاد يكون بعيدا عنه))[١]، وقد وصل الادعاء الى القرن الخامس الهجري على أساس أنَّ ((منهجية عبد القاهر العقلية المنطقية المعللة، تدل على إمكانية اطلاعه على الفلسفة اليونانية))[٢].

الثاني/ الوافد اليوناني الاعتراض والمشروع العربي البديل:

برزت في الدراسات العربية المعاصرة ملامح وإشارات ترصد جانبا من جوانب هذه القضية تشير فيه من قريب أو بعيد إلى وعي العرب القدماء بخطورة الوافد الأجنبي على مسالك النقد ومذاهب الأدب مما شكل حافزا للاعتراض، كانت من ابرز نتائجه تشييد بناء مشروع عربي بديل يتجاوز هذا الوافد؛ يتمثل بالانكباب على معطيات اللغة أخذا وتفسيرا وتنظيرا للإفادة من كل رأي نقدي مهما كان دافعه وفي أي مصب كان مراده، وقد تسابق العلماء والباحثون في إثبات أصالة قضية (اللفظ والمعنى) ومعالجتها، إذ تمثلت معالجاتهم في الإجابة عن السؤال الآتي: ((هل كانت هذه المعركة حول اللفظ والمعنى من عمل النقاد العرب، أم إنها جاءت إليهم من تراث اليونان القديم فيما ترجموه عنهم؟))[٣].

---

(١) الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي:٧٦-٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ٨٢.

(٣) نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر الجرجاني والنقد الغربي الحديث: د. محمد أحمد نايل، دار المنار،١٤٠٩هـ-١٩٨٩م:٩.

وقد كان من مهام هذا الرصد مراقبة آلية دحض بعض حجج التبعية وتفنيد تأويلاتها إلى جانب الكشف عن الجانب الأصيل في النظرية النقدية العربية وتقريب النصوص القديمة من روح العصر وردم الهوّات الحاصلة بين التراث والمعاصرة، وقد تركز جهدهم في تبني الأفكار الآتية:

١-تمثل الرؤى التي حملها التراث اليوناني من الأمور المشتركة بين اللغات جميعا وأخذها على ماهيتها مسألة غير مسلم بها؛ لأنها لا تلبّي حاجة فهم الإبداع العربي، في حين تستند المنطلقات النقدية العربية إلى قاعدة تراثية عريضة لها ما يبررها في أحيانا كثيرة إذ يرفض الدكتور احمد مطلوب تأثر البيان العربي بالنظرة المنطقية من قوله: ((إنَّ أرسطو لم يذكر سوى فنون بلاغية قليلة كالتشبيه والمجاز وهما مما اتفقت فيه الأمم وعرفا في جميع اللغات، وإلا بعض ألوان البديع التي زخرت بكثير منها بلاغة العرب))[١]، هذا وقد ذهب هذا الرأي برفضه مستندا إلى عدد من الأدلة التي تحيل على بطلان افتراض التبعية، فالعرب ((استطاعوا أن ينتجوا جملة من النظريات النابعة من واقع الفكر العربي، والواقع الجديد الذي وضعهم الإسلام فيه؟))[٢]، تعد الأصول المعرفية العربية من العوامل الرئيسة التي يتوجب الرجوع إليها في حل إشكالية القضية ويمكن التعامل معها على أنها حلقة عميقة تضرب في القدم لدرجة يمكن الوثوق بمقرراتها، وعليه يمكن القول أنَّ ((لهذه القضية جذورها في التراث، فقد أثيرت عندما ظهرت طائفة من المعتزلة – وعلى رأسهم النظَّام- تدّعي أن لفظ القرآن لا إعجاز فيه، وإنما الإعجاز في المعنى فقط))[٣].

---

(١) بحوث بلاغية: ١٧٦.

(٢) تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر: ٧٦.

(٣) عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتنُّ في العربية ونحوها: د. البدراوي زهران، دار العالم العربي، ط١، ٢٠٠٩م: ١٤٧.

وتعاضد هذه الرؤية وهذه الأدلة آراء أخرى لا تقل عمقا عما سلف ذكره ففي نظرة مفعمة بالفكر؛ يرى الدكتور محمد عابد الجابري أنَّ جذور إشكالية اللفظ والمعنى ترجع إلى ((الطريقة التي سلكها اللغويون في جمع اللغة ووضع معاجم لها))[١]، وهذا وجه من وجوه الأصالة لا يمكن التشكيك به.

يضاف إلى ذلك أيضا جدل اللغويين والمتكلمين في (أصل اللغة) أَهو وضعي أم توقيفي، كان مولدا في النظر إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى أنها قائمة على الفصل بينهما[٢].

ومن جانب آخر ظهرت إشكالية واضحة في تأويلات المعاصرين مع بعض التوجهات، إذ يرون في ركائز الاختلافات العربية بين النقاد ولاسيما قضية (اللفظ والمعنى)، مؤثرات أرسطية قد انطلقت بعد مجيء أفكار الجاحظ إذ يتم تقييم آرائه بهذه المؤثرات وربطها بها جريا على ما قاله الدكتور طه حسين؛ لكن الدكتور محمد عابد الجابري لا يتفق مع الرؤية التي بها ((يشتكي الباحثون العرب المعاصرون من كون الأبحاث البيانية قد اتجهت بعد الجاحظ اتجاها منطقيا تحليليا فأغفلت الناحية الفنية والجمالية، ويعزون ذلك إلى ما عبر عنه طه حسين بـ((الغارة الهيلينية)) التي نجحت حسب رأيه في توجيه المعتزلة، منشئي البيان العربي، من الأدب إلى الفلسفة[...] نحن لا نوافق ((عميد الأدب العربي)) على هذا الرأي))[٣].

٢-مراحل التطور والنمو في قضية (اللفظ والمعنى) على وجه الخصوص والبيان العربي عامة إذ إنَّ تحليل هذه القضية على وفق مراحل التحول في التراث العربي يؤكد أن هذا الرفض ناتج من صلب التأسيس العربي القديم للدراسات

(١) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية:٤١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه:٤٢.
(٣) ينظر: المصدر نفسه:٣١.

وتفريقه بين ركنين مهمين فيه أحدهما: تمثلت مادتها إنتاج الخطاب هدفا للتأليف، والأخرى: تبنت منهج البحث في تحليل الخطاب النقدي غاية للتأليف الذي قضى مراحل متقدمة من تاريخ الدراسات اللغوية عند العرب، ((ذلك أن تحولت الدراسات والأبحاث البيانية من الاهتمام بشروط إنتاج الخطاب إلى الاهتمام بتحليل الخطاب تحليلا بيانيا منطقيا))(١).

كان في هذا التحول رؤية جسدت طبيعة النشاط العلمي للعرب في وقت مبكر، ويختبئ خلف هذا التأسيس المشروع العربي الأصيل متمثلا بـ"النظرية اللغوية"، ولعل الدافع الرئيس من ذلك كان ((بسبب (هجوم العقل اليوناني) على المتكلمين المعتزلة وتحولهم المزعوم من (الأدب) إلى (الفلسفة)، إنَّ الذي حدث، في الواقع))(٢).

وإذ تكمن مهمة الدعوة إلى ضرورة تبني المنطلقات العربية الأصيلة في المدونات الأولى وتطويرها باتجاه بناء الرؤية العربية الأصيلة تيار ((كونه الفقهاء وعلماء الأصول هو الذي امتد تأثيره إلى الساحة البلاغية فصرف الناس من الاهتمام بالخطابة، أي بشروط وتقنيات إنتاج الخطاب البليغ، إلى الانكباب على دراسة قوانين تفسير الخطاب المبين))(٣).

ففي هذه النظرة التفسيرية لعناصر الاشتغال في البيان والبلاغة الصورة التي تشكل المعطيات الثابتة والمتغيرة، إذ تبرز الغاية الرئيسة من ذلك هي (أصالته) بوصفه عاملا مؤثرا يسهم بشكل مباشر في تأطير قضية الإعجاز بين الفرق والمذاهب المتناحرة نلاحظ أنَّه قد شاع ((بصورة خاصة عندما انشغل المتكلمون، وفي مقدمتهم المعتزلة بقضية (إعجاز القرآن) واعتبار طريقته في (النظم)، نظم

(١) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية: ٣١.
(٢) المصدر نفسه: ٣١.
(٣) المصدر نفسه:٣١.